

# تاريخ التمدن الإسلامي

## تاريخ التمدن الإسلامي

مدرك الجزء الخامس من تاريخ التمدن الإسلامي مؤلفه العالم الفاضل جرجي افندي زيدان صاحب مجلة الهلال وهو يبحث في نظام الاجتماع وطبقات الناس والآداب الاجتماعية والعيشة العائلية وحضارة المنكة وآثار المدنية وأبهة الدولة ومظاهر العظمة والرفعة . وقد قال حضرة مؤلفه في مقدمته أنه أخرج أجزاء الكتاب وأتربها إلى إتمام المطالعين على اختلاف طبقاتهم لأنه يبحث في مثل ما ألفوه من العادات والآداب والابحاث الاجتماعية والمواضع العمرانية والاحوال العائلية وهذا الجزء أربعة ابواب كبيرة الاول نظام الاجتماع . والثاني الآداب الاجتماعية . والثالث حضارة المنكة . والرابع ابهة الدولة . وقد جاء في الباب الاول تحت عنوان "طبقات الناس في الشام والعراق" ما يأتي :

"زيد يهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي ومكان هذه البقعة أكثر ارض اخلاطاً في اجناسهم واديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي نزلت عليها من اقدم ازمة التاريخ . وللعناء ابحاث طويلة وآراء متضاربة في اسوالم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يخرج من ابحاثهم ان اقدم من عرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين . وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند اطراف ما بين النهرين شمالاً شرقياً إلى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الاحمر غرباً وشواطئ اليمن وحضرموت جنوباً فخليج فارس وبحر عمان شرقاً . وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سيناء وجزيرة العرب

والساميون ثلاثة فروع كبرى (١) الآراميون وهم القبائل السامية الشمالية كانت مواطنهم في ما بين النهرين والعراق وسوريا الاقسام من شواطئها (٢) العميرانيون وهم القبائل السامية الوسطى ومواطنهم في فلسطين وشواطئ سوريا (٣) العرب وهم القبائل السامية الجنوبية ومقاتهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سيناء فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية واتسموا بتوالي

الاجيال الى ام اشهرت في التاريخ اسمها امة السريان في ما بين النهرين والعراق واكلدان في اعالي سوريا. واتسمت اللغة بهذا الاعتبار الى النرعين للسرياني والكلداني والصبرانيون يراد بهم ابنا ابراهيم وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ولحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية. واما العرب فكانوا يتقاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ومن فروعها او اخواتها الحيرية والحبشية. واترب القبائل العربية الى الشام الانباط وكان لم شأن في اثناء تسلط الرومان على الشام

”فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في اقدم ازمة التاريخ مأهولة بشعب سامية تتقارب تبك ولغة. اما قبل نزول الساميين فكانت مقاما لام لا يعرف اصلها وكان الساميون اقوى منهم فظلمهم على بلادهم واستقروا فيها واخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون. وهاك ترتيب ساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب — السريان فاكلدان فالفينيقيون فالعبرانيون فالانباط. ومخالطتهم ام شتى غير سامية اقامت بين اظهم في بقاع مختلفة من بلادهم غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانها ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعا وعاشت اديانهم وادابهم وعاداتهم

”على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لطماع الفاتحين من الامم القديمة كالخمين والمصريين والاشوريين والنرس فكانوا يتناوبون فتحها او اكتساحها ونفاخر شعوبهم اليها. ولكن الامر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر. فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد واوغل فيها ثم صيرها مملوكة يونانية وتوافد اليها اليونان وافاموا فيها واختلطوا باهلها ولاسيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطنة الرومان. ولكن النصر اليوناني ما زال متغلبا عليها واكثر تغلبا على سواحل بحر الروم وبضعف شأنه في الداخلية تدريجيا

”ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية تحافظ على آدابها وعاداتها ولغاتها ولا سيما اليهود فانهم مع ما اصابهم من الاضطهاد والسي ظلوا من حيث الآداب والدين نحو ما كانوا عليه في ايام داود وسليمان الا ما اصاب لغتهم من التغيير في اثناء المسي يبابل قائما اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية او الكلدانية وبها كتبوا التلمود. والتسموا الى اليهود والساميين. اما من بقى من الشعوب السامية ولاسيما السريان فنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين واعالي سوريا الى فلسطين فكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الاراميين الاصليين

وم السريان في الشمال والشرق واليهود والساسانيون في الجنوب وبقايا الانباط في الغرب  
 يليهم العرب الفرسنة وانشاذة ثم نبتل اباد وريسة بين النهرين ويقفل هذا المجموع  
 شتات من ام اخرى كالطراحة في جبل النكاح والجرامقة في المرسل واخلاق من مولدي  
 اليونان الرومان على الشواطىء ومولدي النرس والاكراد في الشمال . وكانت جامعة الدين  
 قد غلبت على جامعة النسب او الجنس او اللغة فاصبحت الطوائف تنسب الى مذاهبها الدينية  
 كالنصارى واليهود والساسانيين . وينقسم النصارى الى ملكيين وبعثية وناطرة وموارنة  
 وغيرهم . وكانت الديانة والياسة مرتبطين والحرب الدينية عبارة عن حرب سياسي يستخدم  
 في تأييد الدولة . فانكيسة التسنطينية كانت ام كنائس المشرق وشعب هذه الكنائس  
 تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها والكلام في تفصيل  
 ذلك بطول

” اما حال الاهالي بالنظر الى الحكومة فكان على غير المألوف بيننا لبعد النسبة بين الحاكم  
 والمحكوم في تلك الايام ولا سيما في البلاد التي يحكمها القرواء البيدون عن اهلها لغة او ديناً  
 او جنساً . فالرومان كانوا يمدون البلاد واهلها وهم العامة منكاً لهم يتصرفون بهم كيف  
 شاؤوا وكان الفلاحون في كثير من البلاد يمدون من توابع العقار فينتقل العقار من مالك  
 الى آخر وفلاحوه معه ويسمونهم سرف (Seraf) اي الاقنان (جمع قن) لا الذين تسرو  
 بهم همسهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة او الادب او التجارة وهم قيلون . فكان  
 الناس طبقتين طبقة اثناة وهم الملك واهله واعوانه ورجال الدين ومن جري بحرام .  
 والعامة اهل البلاد الاصليون واكثرهم الفلاحون او الاكراة

” فخاصة اهل الشام في العصر الروماني حكاهم وهم البطارقة والبطريق غير البطريك .  
 وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من اشراف المملكة الرومانية نشاوا مع مدينة رومية  
 وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية وانعط شانهم بعد اتساعها ولم يبق لهم عمل فلما  
 امتدت سطوة الروم الى الشرق رآوا تلك البلاد البيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع  
 اهلها الا اهل السطوة والهيبة فهدوا بذلك الى البطارقة وولموا استعمرات الشرقية وفي  
 جبلتها الشام ومصر وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقلياً على كل اقليم بطريق معه  
 الجند كانه حاكم مستقل وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتمي من الشمال الشرقي  
 الى الفرات ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها وانما جعلناها منها في كلامنا عن الاهالي  
 لانهم واهل الشام من اصل واحد كما رأيت ”

وجاء تحت عنوان "طبقات الناس في مصر" ما يأتي  
 "ان سكان مصر اقل اخلاطاً من سكان الشام والعراق ومع ذلك فقد تولت الهجرة اليها من اقدم ازمة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراغة اكثرهم من الفاتحين الغرباء فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام لم الامر فيها هاجر اليها اهل عصبيتهم لاستثمار ذلك النتج . فيانون على ان تكون اقسمتهم وقتية وبنما يجتمع لم المال ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا يمضي بضعة اجيال حتى يختلطوا بالسكان وبصيروا جزءاً منهم كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم عن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين انهم لا يزالون يميزون عصبيتهم من عصبية سائر رعاياهم حتى ينتقل الامر من ايديهم الى فاتح آخر فتنامى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين . ناهيك عن كان يأتي مصر الاتجار او للاستثمار لاشتهارها بالخشب والرخاء .

" وكان الفاتحون يترضون غالباً عن الاخلاط بسائر افراد الامة فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكنهة ومحرم من اهل الياذة ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى وبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالة حكروا مصر نحو ٣٠٠ سنة وثقاطر اليونان في ايمانهم بكثرة وكانوا يقيمون في الاسكندرية او غيرها من العواصم واكثرهم من الجند او التجار او رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شان الرومان فانهم تولوا وادي النيل ستة قرون والروماني يتنازع عن المصري لغة ومذهباً وخلفاً وكانوا يقيمون في المعاقل والحصون او المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام

" فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طيقتين (١) الرومان او الروم وما سميتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والاجناد وبعض رجال الاكليروس (٢) الاهالي وهم الابطاط الاصليون يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين لتجارة او الخدمة او غيرها من اهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافرقتية . وكان بين الحكومة والاهالي فاصل آخر مذهبي فكان الروم على مذهب الملك وهم المكيون والابطاط على مذهب يعقوب البراذعي وهم يعاقبة "

وجاء تحت عنوان " مساحة الارض الزراعية في القطر المصري " ما يأتي  
 " استخرجت مساحة الارض الزراعية بالاحصاء الرسمية لتعديل الخراج . منها احصاه لبيد الله بن المطحط سنة ١٠٧ هـ فبلغت مساحة الارض الزراعية بما يركبة النيل ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ فدان اي نحو اربعة اضعاف ما بلغت اليد مساحتها اليوم مع اجتهد حكومتنا

في تجميع وسائل الري وبناء المسور واغزانات وما لدينا من آلات الحث والزرع . فاذا سبق الى اذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكماً لأول وهلة وبلا تردد انها مكتوبة اما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المتقن فلا نعدم الوصول الى الحقيقة

فالتقريظ وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقبلوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التماساً . وذكروا في امكنة اخرى ان الارض الزراعية نقصت في ايام ابن المدير اي بعد قرن ونصف القرن الى ٢٤٠٠٠٠٠ فدان ولم يكتشفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحث والزرع واشترطوا عدداً معلوماً منهم فاذا نقصت غلة الارض <sup>١٠</sup> ولا ينبغي لك وجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في هذا العصر . فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الآن اي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحرى الشرقية والصحراء حكناً باستحالة زعمهم : لان مساحة مصر الجغرافية اليوم وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الاحمر والعريش نحو ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع معظمها صحراء فاحلة . اما الارض الزراعية فمساحتها ١٧٢٢٦ ميلاً مربعاً يخرج منها ٤٧٥ ميلاً مساحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات وضواها فالباقى ١٢٩٧٦ ميلاً مربعاً اي نحو ٨٠٠٠٠٠٠ فدان وهي الارض المزروعة الآن فلا سبيل الى المزيد

<sup>١١</sup> ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن احوال مصر في ايام قديمهم وما جاء من اخبارها القديمة ان حدودها الزراعية كانت اوسع من ذلك كثيراً — ذكروا انها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة وتصل من الشرق بحدود السريس الى العريش . ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعنبر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً . ولا تزال آثار العارة باقية في تلك البقاع فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اخبر الارض بالمبار

<sup>١٢</sup> وكان الصعيد عامراً ويمتد من جبة الشرقية الى البحر الاحمر وارضى البجة وكانت اطميان الفيوم ممتدة الى ما وراء العارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا تخطينا ما ذكرناه من هذا القبيل وان النيل كان اكثر فروعاً واغزماً واوسع فيضاً مما هو عليه اليوم هان علينا قبول التوالم وان كنا لا نزال نستغربها بعدلها عن ما لوقنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحاري المحيطة بوادي النيل شرقاً وغرباً بنزع ما ينظفها من الرمال ونروائها بالترع المتصلة اليها من النيل او بالآبار الارتوازية نرى اقوالهم معقولة . ولا ننسى ذلك بيدينا ورجال الاعمال يدرسون امثال هذه المشروعات

« واشهر مدن القطر المصري في الاسلام النسطاط والقاهرة وقد ذكرنا عبارة النسطاط في الجزء الثاني . واما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في اواسط القرن الرابع لهجرة مقلداً لولاه الخزلمدين الله الفاطمي وجندوه . فظلت في اثناء دولة الفاطميين لم تنسح عمارتها وانما كانت العبارة للنسطاط والنتطاطح . وذكر المقرئزي انه كان في هاتين المدينتين غير القاهرة ١٠٠٠٠٠ بيت في بعضها مئة انسان ومثان اذ يكون البيت مؤلفاً من خمس طبقات او ست او سبع ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد فكيف تكون عبارة هذه . ولما اقتضت الدولة الى السلطان صلاح الدين اذن للناس بكفى القاهرة فانصت بمدينة النسطاط وكانت النسطاط تسمى ( مصر ) فلما سارنا مدينة واحدة اطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ثم قالوا ( مصر القاهرة ) ولما خربت النسطاط ظل هذا الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور » والكتاب كله على هذا النسق من التدقيق والسهولة وفيه حواشٍ بالاسانيد التي اتتمد حضرة المؤلف عليها في تأليفه مثل المقرئزي ونجح الطيب والاغانى وابن خلدون والحارث لابن قتيبة والكمال للبرد ومختصر الدول وغير ذلك . وهو يشهد بفضل مؤلفه وشدة ما عانى من الصعاب حتى جاء به كما هو . فتمنعه خالص الشكر ونحى الادباء ومحبي التاريخ على اقتناء كتابه واجتباء ثماره . اما ما فيه من الاحصاء فتكلم عليه في وقت اخر

### صرف ونحو انكليزي

اهدي اليها حضرة الاديبين محمد اندي رجا من مدرسي مدرسة عابدين ومحمد اندي عبيد من مدرسي كلية غردون نسخة من كتاب صرف ونحو بالانكليزية سمياء "The Pupil's Grammar" للتلامذة المصريين وخصوصاً المرشحين لامتحان الشهادة الابتدائية . وهذه النسخة من طبعة ثانية للكتاب ادخلا عليها كثيراً من التغيير والتنقيح فجاءت اسج من الطبعة الاولى واوفى بالحاجة . وقد عرضها على جمعي مكلان ولجيمان في لندن فشهدا لها شهادة حسنة جداً

### سقوط نابوليون الثالث

وقتنا على المجلد الثاني من رواية سقوط نابوليون الثالث لحضرة مرجها الشاعر الاديب نقولا اندي رزق الله مدير جريدتي الاهرام والبراميد وهي رواية تاريخية اجتماعية ادبية غرامية عصرية والمجلد الثاني كالاول في طلاوة عبارته وسهولة ماخذوه . والرواية كلها ثلاثة مجلدات وسيشر المجلد الثالث وفيه بقية الحديث